كتاب الرحالة المصري محمد عبدالجواد القاياتي

«نفحة البشام في رحلة الشام»

السبت، ٣٠ يناير ٢٠١٠

أنيس الأبيض *

تعكس كتب الرحالة في الحواضر الشامية نماذج حية من الصور الاجتماعيـة والاقتصادية المختلفة التي عاشها سكان بلاد الشام، وتتناول هذه النماذج بالدراسة المقتضبة أحياناً والمفصلة أحياناً أخرى مظـاهر دقيقـة للأوضـاع الاجتماعيـة والاقتصادية التي دونها الرحالة، وعايشوها مـن خـلال اخـتلاطهم بالطبقـات الاجتماعية الغنية والفقيرة في مختلف المدن التي مروا بها أو أقاموا فيهـا. كمـا تتضمن إشارات كثيرة تصف أجور البريد وانتظام العمل فيه، وأجور الإقامة فـي الفنادق والنقل بالعربات الخاصة ونفقات المدارس وأسعار الطعام، كما تقدم نماذج عن بعض المصنوعات المحلية وطرق تصديرها إلى الأسواق الأوروبية. وتتناول بشيء من التفصيل سلم إنتاجها السنوي كإنتاج الحرير والإسفنج البحري ولائحـة

بأسعار بعض الحاجيات المختلفة، كالخبز ولحم البقر، ولحـم الغـنم، والـسمك، والدجاج والتبغ والصابون والسكر والبن والأرز والخمر..

أثناء إقامة القاياتي في الديار الشامية أتيح له معاينة وتدوين عادات سـكان بـلاد الشام، فأشار إلى بعض ملامح التغيير الاقتصادي التي شهدتها حواضـر الـشام، ولاسيما بيروت، فمنذ أن حطّ آتيا من مصر، أمكن له أن يـرى مظـاهر الغنـى والثروة التي وفرتها حديثاً المبادلات التجارية مع أوروبا. وذلك من خلال تعرفـه على عدد كبير من العلماء والوجهاء، والتجار. فعائلة آل القباني « وهـي عائلـة مشهورة من مشاهير عيال تلك المدينة المعمورة»... وفرت لـه منـزلا للـسكن والإقامة، فبمجرد أن سمع الشيخ أحمد أفندي القباني بقدومه بادر على الفور الـى مقابلته « وأسرع في زيارتنا في الخان المذكور، ودعانـا للنـزول فـي منزلـه المعمور، فأجبناه بلبيك لا تثريب عليك قد أخذنا من أحـد أقـاربكم منـزلا لكـم وبحذائكم» ومنهم السيد عبد القادر قباني مدير جريدة «ثمرات الفنون» البيروتيـة وأخوه سعد الدين قباني أحد الرجال المستعدين المعدودين ولـه خـدمات للدولـة والوطن مهمة وتوظف في جملة مأموريات جمة».

كما كان من جملة من تعرف عليهم من وجوه هذه المدينـة وأمرائهـا وعلمائهـا وأدبائها وتجارها وأهل اعتبارها بيت «السادات بيهم فإن لهم تجـارات عظيمـة، وثروة جسيمة، وقصوراً مشيدة، وبيوتاً عديـدة، وأملاكـاً وعقـارات وحوانيـت

وخانات ومنهم الحاج محي الدين بيهم الذي تولى قديماً رئاسة بلدية بيروت، وهو الآن مشتغل بأمر تجارته رافل في حال يساره وثروته».

ومن العائلات البيروتية، «عائلة رمضان ذات المجد والشأن موجود منهم إلى الآن حضرة السيد عبد الغني أفندي رمضان، وهو كبير هذه العائلة المشهورة وله مـن الأولاد النبهاء نحو العشرة. وغالبهم مستخدم في الإدارات الملكية، وهـو أيـضا عضو من أعضاء الجزاء مجلس البلدية، وعمر بن أمين آغا رمضان الذي كـان والده في قديم الزمان، موظفاً بوظائف علية حتى في أيام دخول الحكومة المصرية في البلاد السورية وهو الآن عضو من أعضاء مجلس الإدارة بدلا من المرحـوم عمر أفندي الغزاوي بعد أن توفي وكان هو أيضاً من كبار أهل البلد غنى وثـروة وله شركة كبيرة مع جناب سعدالله بك حلابو، وهو شامي الأصل بلغ من الـشهرة في التجارة مبلغاً وافراً حتى صار له مع شريكه المذكور وابوران يستخدمهما في تجارتهما في البحر الأبيض والأحمر». ومنهم السيد «محمد بن إيـاس الدمـشقي الأصل، نال من الثراء والغنى ما لا يدخل تحت نطاق. والحـاج حـسن أفنـدي الغندور له في التجارة حظ موفور، وعائلة البربير، وكل هذه العائلـة مـن أهـل المعارف الوفيرة والمزايا الكاملة الكثيرة، فمنهم التجار الكبار والعلمـاء الأخيـار كالسيد بشير بالذكر البربير الذي هو مدير لبوستة الاتحاد العثماني».

ومن أعيان أهل التجارة «الحاج إبراهيم أفندي طبارة، من بيت مشهور بهذا اللقب، وهو رجل كريم النسب، كامل العقل والأدب، يحب أهل الفـضل والـدين، ولـه مواساة لبعض الفقراء والمعوزين. ومنهم السيد مصطفى نجا من أهـل التجـارة والعلم والذكاء والفهم، وأبو خضر العيتاني أحد المشاهير بالثروة قديماً، ومنهم بيت العريس وبيت قريطم، وبيت خزمة».

ولم يخص القاياتي العائلات الإسلامية بالذكر وحدها، بل إنه أشـار إلـى بعـض العائلات المسيحية الغنية « أما العائلات النصرانية فهم كثير، وأمرهم في الغنـى والثروة شهير، ومنهم السراسقة والتويني وبسترس. وغيرهم ممن ظهر حديثاً في مظهر الغنى المفرط بواسطة التجارة والمعاملات الأوروبية» وهذه العبارة الأخيرة للقاياتي تدل بوضوح على مدى الثراء الذي حقّقته هذه العائلات المسيحية وغيرها آنذاك بواسطة التجارة مع الغرب.

ولا يخفي مؤلفنا إعجابه بمدينة بيروت، فهي من أعظم المدن الشامية والمراسـي الساحلية، عالية المباني كاملة المعاني، عماراتها من داخل السور غالبها من قـديم الدهور، وأما البناء الجديد في خارجه فهو على طـراز جديـد واتقـان وتـشييد موضوع على أعلاه القرميد وفي أطواقه الشبابيك من الحديد، أما بناء المدينة فكله من الحجر الصلب الجاف والكلس المسمى بالجير، ويخلطونه بالرمل الأحمر بعـد تصفيته بمصفاة من خشب معدة لذلك، وتخمره أياماً طوالا حتى يصير كـالعجين

في التلبك واللين». ولشدة حرص أهالي بيروت على الاعتنـاء بمبـانيهم، فـإنهم يحضرون لها الأعمدة والبلاط من الرخام ويضعونه في أرضها وحيطانها بغايـة الإحكام، ويتغالون في النقش والفرش من ذهب وحرير، ويتعالون في ما يجلسون عليه من كرسي أو سرير».

وتعجبه براعة أهالي بيروت، وحتى الفقراء منهم، في الاستفادة من أنواع التجارة، فالفقير منهم يبني مسكناً ويعده لاكتراء الغرباء الذين يقيمون فيه مدة أيام الـشتاء، فيسكن هو الطابق السفلي ويؤجر الطابق العلوي، فتكون تلك الحارة كأنها نوع من أنواع التجارة، ويقارن القاياتي بينهم وبين أهل مصر فأهل بيروت احتالوا علـى تحصيل العيش لا كأهل مصر الذين استولى عليهم البطر والطيش، وتركوا التدبير واتبعوا التبذير». ... «ولاشتغال أهل هذه المدينة بأشغالهم التجارية من الـصباح إلى المساء ما بين كونه في دكان أو حاصل يبيع ويشتري، أو في الميناء يستخرج بضاعته المجلوبة إليه من أوروبا أو بلاد أخرى، فليس له وقت فراغ، فلا تـراهم يكثرون من السهرات الليلية، ولا يشتغلون بكثرة مجالسة الأصدقاء والأقربـاء ولا مؤانسة المسافرين والغرباء إلا على قدر الضرورة، كعزيمة أو وليمة لعزيـز أو قادم كريم، منهم بخلاف أهل دمشق، فإن كبارهم أصحاب عقارات وأملاك ومـع ذلك تراهم متفرغين لملاقاة الغرباء ومؤانسة الأصدقاء بـصدور رحبـة وألـسن بالتحيات رطبة».

وهذه المقارنة بين أهل دمشق وأهل بيروت تفسح المجال للاطلاع على انـشغال أهل بيروت بشؤون التجارة والترانزيت بفضل ميناء المدينة الذي بدأ ينمو آنـذاك باستمرار فأصبحت البواخر والسفن تدخله كل يوم مما لم يدع لأهل بيروت متسعاً من الوقت يصرفونه خارج نطاق أعمالهم المتزايدة». بعكس أهل دمشق الـذين لا تضغط أعمالهم عليهم فيتيسر لهم الترحيب بضيوفهم والتفرغ لملاقاتهم.

ويرى القاياتي أن هذا الرخاء الذي ناله كثير من تجار بيروت، قد انعكـس علـى عمران المدينة فظهرت عمائرها الجديدة المبنية على الأسلوب الحـديث بجانـب مبانيها القديمة الواقعة داخل السور، إلا أن هذه النقلة النوعية في تحديث البناء لـم يغير من طبيعة المدينة فبيروت كما يراها مؤلفنا مدينة إسلامية ديناً وغيرة وحمية أوروبية نظاماً وبناء وحرية ، فإنهم مع كثرة مخالطتهم لغير أهـل ديـنهم مـن وطنيين وأجانب في غاية الصلابة والتحفظ على شعائر الدين. ولم يقلـدوهم فـي طول مدة العشرة إلا في مراعاة القوانين والنظم فـي المرافعـات والمـدافعات، والمباني المشيدة البهجة، والطرقات والأسواق المنفرجة، وفيها غاية السهولة فـي تناول البضاعات التجارية والتحارير والرسائل بواسطة البوسـتات والوبـورات الأجنبية. فالسفار فيها والإخبار يومية لا كغيرها من البلاد السورية. فهذه مزية لها وأي مزية..

لقد شدت الرحالة عوائد أهل بيروت، فعمل على نقل صورة دقيقة عـن أحـوال أهلها ومؤسساتهم وعوائدهم وأعيادهم، ففي أعيادهم درجت العادة أن يـصلّوا ثـم يرجعوا ويزور بعضهم بعضاً في بيوتهم، ويقدموا للزائر شيئا من الحلوى، كمـا كانوا يصلّون جميعاً في مسجد سيدنا يحيى وهو مسجد البلد الكبير الجامع، ويعيـد بعضهم على بعض فيه قبل خروجهم إلى بيوتهم ولا يذهبون للتعييد خارجه.

وأما عاداتهم في الأفراح فهي نشر أوراق الـدعوة لـبعض الأمـراء والوجـوه والأقارب لحضور كتب الكتاب (العقد) وسماع قراءة المولد الشريف النبوي نهاراً. وقراءة عشر من القرآن. إلا أن القاياتي يأخذ على أهل بيـروت عـدم معـرفتهم الألحان الجديدة في الموشحات والأدوار، فقراءتهم هي على الطريقة القديمة التـي كانت بمصر منذ زمان قديم، وكذلك قراءتهم القرآن ليست كما ينبغي في التجويـد والجودة، فأهل بيروت، بل وأهل الشام عموماً، أحوج ما يكونون عليه حاجتهم إلى القراء المجودين، والمنشدين المطربين. ويبدو أن أهل بيروت يتجنّبون الباهظ من النفقات في مثل هذه المناسبات مما أعجب القاياتي « ولقد أعجبني هذا الصنيع في قلة الكلفة والغرامة الموجبة للحسرة والندامة لا كما يفعل إخواننا المصريون مـن الإسراف والتلف والتبذير، وقلة العقل والتدبير». فالمصري الذي يزوج ابنته يفتقر فقراً لا غنى بعده، بعكس ابن بيروت الذي يعتمد الاقتصاد والدربة.

وأما عاداتهم في المآتم فهي خفيفة الكلفة أيضاً، يموت الميت فيجهزونه ويحـضره من كان يريد أن يشيعه إما في البيت أو في المسجد الجامع. وموعدهم الصلاة إما الظهر وإما العصر، فإذا قضيت الصلاة المكتوبة، وصلاة الجنازة خرجوا به مـن المسجد وأمامه الفقهاء والقراء، فالبعض يقرأ القرآن والآخر يقرأ البـردة. وأهـل الطرق يقرؤون في أورادهم وأحزابهم. ولا يفعلون في حيـاتهم مـن التكـاليف الزائدة، و كل من يجيئهم للتعزية لا يتناول إلا القهوة والنرجيلـة، ولا ذبـح ولا سلخ». ويصف حال بيروت بقوله «وعلى كل حال فإنهم ليس لهم كبيـر اهتمـام بشيء من الأفراح أو الأحزان أو العزائم أو الولائم، ولا يخافون لومة لائم.. فهـم رجال لا تلهيهم عن معاشهم أفراح ولا أتراح»، ويبدي رغبته في أن يتشبه بهـم أهل مصر «ويا ليت أهل مصر يتشبهون بهم والتشبه بالرجال فلاح».

ويتحدث عن لبوسهم، فهم فيه على أقسام: قسم، وهو الكثير الغالـب الآن، يلـبس الطربوش الإفرنجي، والسترة والبنطلون، ويحلق لحيته ويبقي شعر رأسه، وقـسم يلبس القنباز (القفطان) في اصطلاح أهل مصر وفوقـه الجبـة أو المـضربية أو السترة الطويلة، ويلبس كل من القسمين في رجلـه اللـستيك (الجزمـة). وأمـا المركوب أو الصرمة فقليل من يلبسهما من الناس إلا الفقراء جداً. وقـسم يلـبس البذلة العثمانية القديمة وهو الدمير والشروال الكبير الواسع وعلى رأسه الطربوش الاسكندراني بالزر الكبير».

وأما النساء فأقسام أيضاً: «قسم يلبس الإزار الأبيض الناصع أو الملاءة الحريـر الحمراء أو المناويش أو الخضراء أو الصفراء أو الزرقـاء، وعلـى وجـوههن المناديل الرقيقة الإسلامبولي، وفي أرجلهن اللستيكات (الجزم)الإفرنجي، وحتى نساء المسلمين خاصة. وقسم يلبس الفساتين الواسـعة مـن الـشيت والـصوف الإفرنجي والحرير الملون، وعلى رؤوسهن الطرح الرقيقة أو المناديل فقط، وهن مكشوفات الوجوه (وربما الزنود) ولا يرين بأساً في المرور بالأسواق والشوارع والحارات ومحادثة الرجال الأجانب في الطرقات والبيوت، وهن كثيرات من نساء النصارى اللاتي يقلدن الأوروبيات حق التقليد. وقسم كنساء أوروبـا تمامـاً فـي إرخاء الذيول ولبس الأعراق والبرانيط على رؤوسـهن، ولا يفتـرقن مـنهن إلا باللسان واللغة، فمتى رأيتهن لا تشك في أنّهن من نساء الإفرنج، وهذا ليس غالب نساء النصارى، المقلدات لهن في كل أحوالهن وأطوارهن».

ويبدي القاياتي استنكاره لخروج النساء متبرجات، يقلّدن نساء الإفرنج في الشوارع والاختلاط بالرجال تحت ستار الحرية والتمدن فيقول « وبهذا الذي يظنونه تمـدناً اشتبه الحال وزاد الاختلال، فلا يدري حال المرأة وهي مارة بالطريق مع رفيق، أهي مع حليلها أم خليلها». ويأخذ على هذه الفئة المتفرنجة التي لا يكتفي أفرادهـا بترك نسائهم على هذا النحو، وإنما ينكرون على المسلمين منع نسائهم من كـشف الوجوه والادعاء بـ « أنه حصر لطبيعتهن، وهن من الجنس اللطيـف والعبـرة

بحفظ الباطن وما دروا أن الظاهر عنوان الباطن، والنظر بريد الزنـا والطريـق إليه، يجعلون محاسن الدين عيوباً وحسناته ذنوباً. ويشبه نـساؤهم وحـالهم فـي الأسواق كقطيع الظباء أو كنعاج الفلاة تعسفن رملا. ويقولون هذا التمدن والظرافة والحرية، وهي خصلة باسم عدم الغيرة والناموس حرية. ولا أظن أن في المـدن الإسلامية من يضاهي نصارى بيروت في تقليد الإفرنج.

* كاتب لبناني